كان أبي

(أب من جيل الستينيات)

أمل عادل

دار الأديب للطبع والنشر والتوزيع والترجمة

اسم الكتاب: كان أبي .. أب من جيل الستينيات
اسم المؤلف: أمل عادل
التدقيق اللغوي: قسم المراجعات بالدار
تصميم الغلاف : علي مالكي
الإخراج الداخلي: رحاب محمد
رقم الإيداع: 2023-19401
الترقيم الدولي : 978-977-86796-7-0

الطبعة الأولى
2023

daraladeeb@gmail.com
فون- ووائس 01014449164

حقوق التأليف: جميع الحقوق محفوظة

للناشر ولا يجوز إعادة طبع أو استخدام كل
أو جزء من هذا الكتاب إلا وفقاً للأصول
العلمية والقانونية المتعارف عليها.

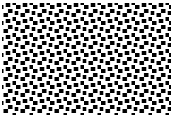

مقدمة

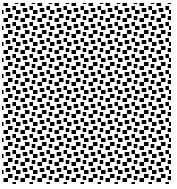

حين تاهت الحروف وتوقف اللسان عن الحديث.. تدفقت المشاعر بشدة وخط قلبي مقتطفات سريعة شكلت جزءاً كبيراً من كياني، فكيان المرء وحاضره مبني على تلك المقتطفات التي إقتطعتها ذاكرته من الماضي، ورفض عقله أن تكون طي النسيان.

باقة من المقتطفات الثرية والتي لا تغيب عن خاطري أبدًا خاصةً بعد أن فقدت أبـــي.. ذلك الإنسان المختلف.. الذي لم يستطع لساني حتى الآن أن ينطق ويقر بأنه قد ذهب بلا عودة..

توقف القطار فجأة .. دون سابق إنذار .. ونزل أبــي.. بينما كنا نتنقل بين المقاعد في القطار الواسع السريع.. لم يخطر ببالنا متى وأين يتوقف القطار... أين ستكون المحطة الأخيرة ومن منا ينزل قبل الأخر..؟

كان من جيل الستينيات، الذي شهد العديد من الأحداث السياسية والاقتصادية، بجانب التحولات الاجتماعية السريعة. فقد كانت طفولته في عصر ما قبل إنتشار التلفزيون.. وكانت شيخوخته في عصر السرعة والإنترنت والتطورات التكنولوجية المتسارعة.

كان زاهدًا قويًا .. يوحي للجميع بأنه بخير.. حتى سقط دون سابق إنذار، ومازلت أشعر بأن للحديث بقية.. هناك ما أريد قوله لك.. ولكن كيف وقد أصبح من المحال أن نلتقي فنتحدث.. فكيف لي أن ارتاح وأين تباع الراحة فأشتريها..؟

... ...

كان يمسك بيدي إلى المدرسة وينقل لي شعور لا يعرفه سواي.. حان الوقت لأقول لك أنني مازلت احتاج لتلك الأيدي لأمسك بها واتشبث ولا افلتها أبدًا.. حتى استعيد ذلك الإحساس بالأمان الذي سرقه الزمان وبات صعب المنال..

يداك هي الأمان لي من عبث الدنيا فكيف أفلتها..؟

تعب وعانى كثيرًا خلال رحلة طويلة وزمن متقلب.. فهل انتهت الرحلة..؟

سعي وراء الرزق دون كلل ولا ملل.. وتحمل مسئولية بناء شخصيات وعقول أبناؤه.. حتى كبروا وتفرقوا.. كل منهم يبحث عن مستقبله.. وظل هو وحيدًا.. فكر الجميع في رحلاتهم وحياتهم الخاصة.. لكن من يفكر في الرحلة السابقة.. رحلة الأب، التي بدأت وانتهت لأجل الأبناء!!

الأب الذي شعر بأن رسالته وصلت.. ورحلته قد أنتهت في اللحظة التي انشغل فيها كل منا بحياته.. ولم يعد هو محور حياة أية أحد...

عندما تتبدل الأدوار..؟!

لا يمكن أن تشعر بذلك الشعور القاسي الذي يشعر به والديك عندما تنشغل عنهم في عجلة الحياة السريعة.. إلا عندما تتبدل الأدوار وتصبح في المكان ذاته.. عندما تصبح أباً.. وتصبحين أماً.. ستدور الأيام ويصبح لصغاركم إهتمامات أخرى وحيوات عديدة.. لا وقت للتجمعات العائلية.. لا مجال لنصائح الآباء.. لا قلب يتسع للحديث بالساعات والدخول في موضوعات جدلية..

ستفتقد تلك الحياة التي تربيت عاشقًا لها... بل وستكون أنت من يفر منها ويضع حواجز زمنية ومكانية تمنعك من العودة إليها..!!

لاحظ ما يفعله الطفل عندما يجد أحد والديه مشغولًا عنه يصرخ وينادي ويختلق المشكلات حتى ينتبه إليه.. هكذا هم كل أطفال العالم..

لكن الكبار لا يصرخون ولا يختلقون التفاهات.. لكنهم يشعرون.. ويكون ذلك الشعور بالوحدة وسط أبنائك في نفس البيت ولكنهم في أودية أخرى، شعور قاتل فلا تكف كلمة قاسي لوصفه..!

...

أنا موظف..!

موظفًا يخرج من بيته في الصباح الباكر يوميًا، بعد أن يشرب الشاي ويأكل معه ساندوتش أو بعضًا من كسارات الخبز الفائض من اليوم السابق. فقد اعتاد الاستيقاظ في السادسة صباحًا والجميع نيام. يرن منبهه في السادسة ليكون صوته هو أول ما يجرح هدوء الصباح كل يوم.

ثم ينادي كل منا بأسمه.. فلا اتذكر أننى صحوت مرة على صوت منبهي في وجود أبــي.. يأتي عند كل سرير، ليوقظ صاحبه.. هيا.. لنبدأ يوم جديد.. كل منا في شأنه .. إلا أبــي، فقد كان لا يمل من إعطاء النصائح والحديث معنا في الكلام ذاته كل يوم قبل الخروج من المنزل..!

ليس ذلك فقط، بل تستمر التوجيهات في التليفون خلال يومنا الطويل إلى حد ما، وأية نصائح التي كان يعطيها لنا عندما نقرر

الذهاب إلى مكان جديد، أو خوض تجربة ما لأول مرة! كان يصب خبرته التي امتدت لعقود، ويسقيها لنا في كوب صغير.. لكن هل كان ذلك الكوب حلو المذاق بالنسبة إلينا..؟

صوت أبــي في الصباح كان يحمل إلينا الكثير من معاني الأمن والاطمئنان، رغم أنني لا أحب الحديث مع أي أحد في بداية يومي، إلا أن صوته كان يعطيني دفعة من النشاط ونداء ببداية يوم جديد.. برنامج "صباح الخير يا مصر".. وتلك النشرة الصباحية على قناة مصر الأولى، وذلك الصوت الذي يترك تعليقًا على كل خبر يسمعه.. لا يمكن نسيان هذا المشهد أبدًا.

...

بعيدًا عن عالم الجينز وأنواعه..

كان ذلك الأب من جيل الستينيات يكتفي بإرتداء بنطلون من القماش.. لونيين فقط الأسود والبني، مع قميص كلاسيكي جدًا، أو تي شيرت بخطوط أفقية متوازية، ليعطيه مظهر وقور جدًا.. فريد عمن حوله في عصر الجينز والموضة!.

لم يكن له نصيب من دولاب كبير.. سوى مساحة صغيرة، تضم القليل من الملابس الضرورية للذهاب للعمل كل يوم.

يكون أول من يخرج من البيت، ليلحق بعمله في الموعد المحدد.. فرغم أن المسافة من البيت للعمل لم تكن بعيدة.. إلا أن زحمة المواصلات كانت تهدر الكثير من الوقت والجهد..

...

أيديولوجيا عجيبة..!

احترت في تفسير أيديولوجية الدماغ التي يمكنها تحمل الصداع والضغط والزحمة وضيق التنفس في المواصلات العامة، وتخطي كل هذا وبدء الحديث مع هذا وذاك، فقد كان أبــي يستمتع بالحديث مع الناس في المواصلات، بل كان يحب الاختلاط بالناس في الأتوبيس والمترو.. فهذا يقرأ القرآن .. وهذا يطالع الجرنال.. وهذا ينشغل بهاتفه.. وهذا يتحدث في الاقتصاد ويشكو هموم أبنائه وثقل حملهم.. فالاقتصاد هو الشيء الوحيد الذي يتحدث فيه الجميع في أي وقت وأي مكان.

كان أبــي لا يمل أيضًا من مشاركة قصصه مع الناس في المواصلات، من الممكن أن يحكي لأحد الركاب عن موقف حدث له في صغره، ولا حرج من مشاركة أي موقف أو قصة مع شعب الأتوبيس.. ولا يتوقف عن الحديث في السياسة أو التاريخ.. ولا

مانع من مناقشة قصة أحد أبناؤه مع الأخرين في هذه المؤتمرات المصغرة..

عالم آخر في رحلة الأتوبيس الصباحية.. كان يعشقه أبـــي أحيانًا.. ويجده أرضًا عطشه لأرائه ومقترحاته، حيث يطلق العنان لذاته في الحكم على أي شيء يتردد على مسامعه من قريب أو بعيد.

في الحقيقة، لم يكن يهذي.. كان حديثه مليء بالخبرة العملية في جوانب حياتية عديدة.. فقد كان أيضًا قارئًا جيدًا خلال فترة شبابه.. كان ينشغل بالكتب والسفر للتعلم واكتشاف أماكن جديدة والتعرف على أشخاص مختلفين من داخل مصر وخارجها.. فقد كان يهوى " المراسلة بالجوابات". التي لا يعرف عنها أي شيء جيل اليوم..

" تحرير ياسطا" ينزل أبــي ويتمشى حتى يصل لمقر عمله.. فور وصوله، يلقي التحية على الجميع..

بدايةً من حارس الأمن في المدخل حتى زملائه ومديره..

لا أعرف سر هذه الإشارة باليد على مقدمة الرأس والتي تشبه التحية العسكرية.. ولكنها تحمل الكثير من الود والاحترام..

...

إمضاء غائب..!

بعد قليل.. يستقبل هاتفًا عبر التليفون الأرضي من أحد أصدقائه يخبره بأنه لن يأتي للعمل اليوم لظرف ما.. ويطلب منه أن يقوم بالإمضاء بإسمه في كشوفات الحضور اليوم..! يسكت أبــي برهة.. لا .. لا .. لم يعتد الصمت أبدًا..

ثم يرد بسرعة " لن أمضي لك ابدًا" كان يعتبر ذلك الفعل خدعة حرام.. رغم غضب أصدقائه منه لعدم موافقته على هذا الفعل أبدًا، إلا أنه كان يخجل ويخاف أن يراه الله وهو في ذلك الموقف المليء بالغش والخيانة.. بل كان يخاف أيضًا أن يشحن هاتفه الصغير في مقر عمله.. بل كان يفضل تركه حتى يعود للمنزل ويملؤه بالشحن..!

كان راسخًا حازمًا في مثل هذه الأمور.. هكذا كان في كل -

شيء يخص عمله بشكل عام، لم يكن يفضل تناول الطعام خلال فترة العمل ولا المشاركة في الأحاديث المُضيعة لوقت العمل.. لذلك.. لم يشهد أحدًا يومًا أنه مقصر في عمله..

فماذا عنا نحن أبناء اليوم؟.. سيطرت علينا روح اللعب والهرج والمرج، حتى في أثناء العمل، المهمة التي يُفترض أن تنتهي في ساعات، تستغرق أيام مع القيل والقال ومتابعة الترندات وآخر صيحات الموضة خلال وقت العمل..

أخاف على مستقبل العمل الحكومي في يد مجموعة من الموظفين المتكاسلين.. الذين يحتلون الوظائف فقط حتى يسرقون عدد من المسميات الوظيفية الواهية، دون تقديم فائدة حقيقية للجهة التي يعملون بها..

وأخشى أن يكون العمل في الجهات الخاصة أيضًا قد طاله هذا الوباء.. يضم فئة من الموظفين بلا همة للعمل، ممن ينتظرون الراتب فقط، ويتخذون المكاتب ساحات لإلقاء الخطب وتبادل الأحاديث والنميمة والتعارف...

طبيب بالخبرة..!

تمر الأيام سريعًا.. تتكرر المشاهد بنفس النمط كل يوم.. حتى يأتي يوم مختلف. الاختلاف يظل اختلاف مهما كان للأسوء أو الأفضل. اليوم المختلف في بيت ذلك الموظف، من الممكن أن يكون يوم مرض أحد أفراد الأسرة، فماذا يفعل بعد العودة من منزله ليجد أحد أبناؤه متعب؟. في لحظة ودون تفكير ينطلق نحو الصيدلية المُصغرة في البيت، ويُخرج شريط "الانتينال" لعلاج آلم البطن، أو" الكونجستال" لعلاج البرد.. هذه هي أهم الأدوية في صيدليتنا.. في حياتي لم اسمع أبــي يقول الجملة الشهيرة في عالم السينما والتلفزيون "هيا نذهب إلى الدكتور حالًا".

كان يكتفي بخبرته يصف لنا الدواء بل ويحدد الموعد المناسب لتناوله.. والغريب أن الشفاء كان يأتي في معظم الأحيان بعد تناول الدواء الذي يصفه أبــي..

لا أدري أهي الخبرة أم خليط من الخبرة والدعاء والتدخل الإلهي!!..

لا يمكن أن أنسى ذلك المشهد في صغري، حين كان أبـي يعالجنا من خلال نزهه بسيطة حول المساكن..! نعم، هكذا كان يفعل عندما نصاب بالحمى، يبادر بأخذ المصاب في جولة ممتعة حول المساكن، العمارات حول منزلنا، مع الكثير من الحكايات خلال هذه النزهه البسيطة، كنا نعود إلى المنزل في قمة النشاط والصحة!

هل الدواء يكمن في ذلك الهواء النقي المخلوط بصوت أبـي خلال جولتنا معًا.. أم بسبب دعاء أمي ولهفة أبـي.. أم من الممكن أن يكون الشعور بالاهتمام هو الدواء.. اهتمام الأب الذي لا يمكن تعويضه أبدًا.. الأب الذي لم يفكر في الراحة عند عودته من العمل، بل أصر على أن لا يغفو دون أن يشعر أن الآلم قد ذهب وترك صغيره.

...

لكن لا أتذكر.. هل كان ذلك التصرف المعتاد هو ذاته الذي كان يحدث عندما كان الأطفال رضع؟ .. هل كان الطفل الرضيع يُشفى لمجرد لفة حول المساكن والعمارات؟!

بالطبع لا.. فقد كان لطبيب الأطفال دور حيوي في حياتنا.. كم كان يتكرر ذلك المشهد المليء بالتضحية والحنان... أب يحمل ابنه بين كفيه في عز الشتاء والمطر ويجري إلى الدكتور.. أو يهرع بمفرده باحثًا عن الدواء المناسب في الصيدليات آملًا في شفاء طفله.

يكون الأب هو البطل الحقيقي لجميع تلك المشاهد، التي تعجز شاشات السينما عن تصويرها بشكل كافي وشافي، ولكن هل يفكر الأب بأخذ عهد أو ميثاق حقيقي يُلزم عقل ذلك الشاب وتلك الفتاة بتذكر هذه المشاهد حين يضعف جسده ويشعر بالآلم والوهن ولا يجد أحد حوله؟..

...

عيش وطعمية..!

في صباح كل يوم جديد، يستيقظ باكرًا قبل الجميع، ولطالما اندهشت من إصراره وعزمه على الاستيقاظ باكرًا حتى في يوم الجمعة!. حين يرتاح الجميع ويفضلون الاستيقاظ ظهرًا.. يفضل أبــي الاستيقاظ في السابعة صباحًا.. وإلا فمن يأتي بالعيش من الفرن والطعمية الساخنة؟!

في رأيي الموضوع يصبح أكثر تعقيدًا عندما تصبح أبًا.. ستجد أن أطفالك يرون الدنيا بعينيك أنت.. وينتظرون منك أكثر مما أنت مستعد لإعطاؤه لهم.. فقد اعتدنا أن نرى أبانا يفعل كل شيء لنا دون مقابل ودون سؤال.. مما يُضفي على الأشياء طعم جميل لا يُنسى.

قد اختار أبــي أن يُحمل نفسه مسئولية تجهيز كل شيء قبل أن نستيقظ.. بالفعل، يقوم باحضار فطور يوم الجمعة المقدس،

"الفول والطعمية والمخلل"، غسيل المواعيين، وملء الماء الكافي لاحتياطي اليوم كله.. فقد يواجه الأبناء مشكلة كبيرة عندما ينقطع المياة لساعات طويلة خلال اليوم.

قدر من البساطة مع نفحات يوم الجمعة ولمة الأسرة المكونة من ستة أفراد.. كانت نعمة لا تُقدر بثمن... جاء دوري للتو، لاحضر الشاي بعد الفطور مباشرةً.. ثم يذهب الأولاد مع الأب لآداء صلاة الجمعة في المسجد.. ولا ينسى أبـــي أن يحضر كل ما نحتاجه على الغذاء وهو قادم من المسجد.

بعد الصلاة يدوي صوت حديث الشعراوي في المنزل، فقد كانت لأحاديثه مذاقًا خاصًا في البيوت المصرية، وخاصةً يوم الجمعة... ها هو ذاك المشهد يمر أمامي وكأني أراه الآن وأتذوق حلاوته.. بعد قليل يتبدل صوت الشعراوي بصوت برنامج "عالم الحيوان"، ذلك البرنامج الممتع، الجذاب للصغار والكبار، صوت رخيم يعلق بمعلومات مفيدة حول اللقطات الممتعة للحيوانات المختلفة.

بعد ذلك يدوي صوت النشرات الإخبارية وتتوالى القنوات في جولة شيقة مع البرامج الإخبارية، مع معلق من نوع خاص.. إنه أبـــي، دائمًا كان يعشق التعليق على كل خـــبر يسمعه، إذا كان هناك من ينصت له أم لا.. هو لا يتـــوقف على أية حال!

تجتمع الأسرة دائمًا على مائدة مستطيلة، تضم 6 كراسي، لتناول الغذاء.. لا أحد ينفص في يوم الجمعة.. الجميع حاضر، ولا يتوقف الحديث لحظة ساعة الغذاء. هذه كانت أهم وأكبر النعم في حياتي.. ما كان يُسيطر على خاطري في تلك اللحظات هو النظر إلى كل فرد على المائدة.. وحفظ طريقته وحديثه ومكانه على المائدة.. كنت أخاف أن تذهب تلك اللحظات بلا عودة.. وانظر إلى الكراسي مرة أخرى، فأجدها فارغة.. نجح قانون الزمان!.

...

جلسة سمر = ألف معنى..!!

تلك الوجوه التي كانت تجتمع بالحب والتـــآلف.. لا وجود للموبيل ولا التلفاز في تلك الجلسات الطيبة.. جلسة من نوع خاص.. مُخصصة للحديث و"الفضفضة".. تتعالى الأصوات ويهيمن صوت أبــي.. بأفكاره العريقة التي تتعارض تمامًا مع ما يدور في عقول أولئك الصغار أبناء التسعينيات وجيل الـ 2000..

ما أجمل أن يحافظ كل بيت على مثل هذه الجلسات!.. التي تعزز الصحة النفسية لكل فرد في البيت.. فلا يُسفر عنها نتائج ولا توصيات.. بل هي فقط بغرض التسامر والفضفضة.. جلسة تعادل ألف اتصال بالهاتف ومليون رسالة عبر الواتساب اليوم.

كل من تربى على تلك الجلســات الجميلة.. يشعر بالغربة اليوم.. حين أصبحت المسدجات والاتصالات السريعة تُغني عن

جلسات طويلة تجمع الأسرة وتُمثل اتصال روحي وترابط بينهم لا مثيل له... فأين يجد الأبناء اليوم هذا القدر من الحب والاهتمام والتعاطف والتقارب..؟!

تاريخ.. جغرافيا.. سياسة.. علوم.. كل شيء كان لأبي حديث لا ينقطع فيه. فقد كان يمتلك فكرًا غنيًا.. وكأنه موسوعة تمشي على الأرض!.

كان أبي لا يدخر جهدًا، فلا يفوت موقفًا حتى يمرر لنا معلومة ما.. حتى عندما كان أولئك الأبناء صغار لم يبلغوا العاشرة بعد! فقد كان يحرص على أن تكون هناك جلسة مسائية كل يوم، تكون بعد تناول الغذاء، مليئة بالقصص التاريخية من الإنسان الأول حتى هتلر والحروب العالمية وغيرها من الأحداث التاريخية، التي ظن ذلك الأب الطموح أنها ستُحفر في عقول صغاره إلى الأبد!!

لكن لا أخفيكم سرًا.. أن أحاديث أبي.. بصوته الذي لا يغيب عن مخيلتي.. هي سر عشقي للتاريخ ورغبتي الدائمة بالقراءة في هذا المجال.

مراقبة الأصدقاء..!

هل من الضروري أن يمتلك الأب أرقام هواتف أصحـاب أبناءه..؟

كان أبــي لا يتردد في السؤال كل عام دراسي عن أصدقائنا الجدد.. من هم وما هي أرقام هواتفهم.. بل أحيانًا يسأل عن مكان إقامتهم..

تلك النظرية أصبحت قديمة اليوم.. حيث يتجاهل بعض الآباء السؤال عن أصدقاء أولادهم، بحجة أن الأصدقاء أصبحوا في كل مكان وليس على أرض الواقع فقط.. بل أصبح أصدقاء الفيسبوك وتويتر والمتابعين عبر التيك توك هم أكثر تأثيرًا من الأصدقاء الواقعيين في المدرسة والنادي والجامعة.

لكنه الاهتمام الذي يجعل الطفل يشعر بوجود سند له بشكل دائم، يشعر بأن هناك من يجلس معه على نفس الطاولة.. هناك من

يشاركه الاهتمام بحياته الاجتماعية في دائرة أصدقائه ومعارفه. كان أبـــي يهتم لكافة تفاصيل أصدقائنا وعلاقاتنا بهم.

لابد أن يزيد هذا الاهتمام في عالم اليوم، يزيد بقدر اتساع العالم الذي يُوضع فيه الطفل منذ ولادته. كم اتعجب من موقف الأب والأم العازفين عن الإندماج في عالم التكنولوجيا، رغم تركم لأبناؤهم في قلب هذا العالم!! ذلك يجعل الفجـــوة بين الآباء والأمهات والأبناء تزيد وتتضخم أكثر فأكثر..

أتمنى عندما أُوضع في مثل هذا الاختبار الصعب، أن أكون في نفس العالم الذي يُوضع فيه صغاري.. إذا كان الإنترنت والعالم الإفتراضي هو عالمهم، أتمنى أن أكون أمًا عبر الإنترنت أيضًا.. أمًا تراقب عن بعد وتشارك وتقوم بعمل إعجابات وتعليقات إيجابـية لأطفالها.. أمًا وأبًا يشاركون ويتحدون لمشاركة أبناؤهم في العالم الإفتراضي مثل العالم الواقعي تمامًا.. هذا أهم بكثير من التوجيهات "اغلق الهاتف.. اترك اللاب توب.. ذاكر.. "

...

لا تنس خريطة العالم..!

كم أصابتني الدهشة من معرفته لمواقع جزر صغيرة في خريطة العالم!.. فأحاول أن احفظ هذه المواقع الجغرافية مثله.. ولكن كيف يتسع ذلك العقل المشغول بتراهات العصر، الهاتف المحمول والألعاب الأون لاين والسوشيال ميديا، لهذه المعلومات القيمة والمدهشة..؟

كما أذكر أن خريطة العالم أتت إلى بيتنا، وقد كنا صغار.. آتى بها أبــي ظنًا منه أننا يمكن أن نعرف العالم في هذا السن الصغير. في الحقيقة كنت فخورة بوجودها في بيتنا.. ومستمتعة بكل إشارة من أبــي إلى أي جزء فيها ليُعرفنا عليه.

من الممكن أن ينسى أبنائك المعلومات التي حاولت حفرها في أذهانهم منذ الصغر..

لكن لا يمكن أن ينسوا اهتمامك بالحديث معهم..

ونبرة صوتك وأنت تُحدثهم وآرائك في الأشياء والأحداث ونظرتك للأمور.. لذلك لا تدخر مالًا ولا جهدًا.. واحضر لهم كل شيء يمكن أن يسهم في ترك ذكرى ما في أذهانهم.. كل شيء يجعلهم يعشقون المعرفة والبحث في مجالات عديدة.

...

لعبة الشطرنج...!

هل بوسعك تعليم طفلك لعبة ما ومشاركته بها؟

معظم الآباء يعتمدون على الأم لأداء تلك المهمة. لكن لعلماء نفس الأطفال رأي أخر..

يقولون أن التجــارب التي يخوضها الأبناء مع أبائهم تكون ذات تأثير أقوى في شخصياتهم.

ذات ليلة.. منذ أكثر من 15 عام تقريبًا.. احضر أبــي لعبة الشطرنج إلى بيتنا. ولم ينم حتى بدأ بتعليمنا اللعبة لنفهم، مكان كل قطعة وكيف تتحرك.. ؟ واستراتيجيات الفوز..

كانت مفاجأة لذيذة بالنسبة إلينا جميعًا.. فقد كان الاشتراك في النادي لممارسة رياضة معينة غير مستمر بالنسبة إلينا، قد قمنا بذلك لفترة ما، لكننا توقفنا.

كانت لعبة الشطـرنج إحدى الألعاب الممتعة بالنسبة لأولئك الصغار، ولما لا.. وقد كانت لعبــة مثيــرة يتشارك فيها الأب والأم مع الأبنـــــاء دون أي تدخل صناعي..!

...

لكل أب..

تأكد أن كل لحظة تقضيها في تلك الدائرة التي تضم الأبناء وأفراد الأسرة.. لحظة لا تعوض ولا تمضي هباءً بل تترك أثرًا وشعورًا بالحب والاهتمام.. لا تشوهه متاعب الزمان.

فالأب هو الشباك الذي يطل منه صغاره على العالم الكبير المجهول بالنسبة إليهم..

نافذة نطل منها على العالم ونحن صغار لا نرى إلا ما يمكن لأعيننا الصغيرة أن تصل إليه.. فنظل كذلك حتى نكبر ونظن أن تلك النافذة كانت ضيقة ولا تتسع لأحلامنا وعصرنا المليء بالتحديثات اللحظية..

لكن لن ننسى أن تلك الموسوعة المتحركة كانت تُغلف بالحب والإهتمام والحرص على تجهيز أولئك الصغار لمستقبل مجهول..

غير واضح الملامح.. بل الواضح أنه مقلق.. مليء بالتحديات والصعوبات.. لا ندري أهو أفضل أم أقبح من واقعنا.

طبيعي أن يكون الأب مشغول بالعمل والإنتاج.. لكن من غير الطبيعي أن يكون الإنتاج الأهم للأب.. وهم الأبناء، خارج حسابات الأب.. لا وقت لهم.. بين العمل وماتشات كورة القدم وخروجات الأصحاب والمجاملات..

كيف تتكون لدى الطفل شخصية سوية، إذا كان الأب لا يهتم لتفاهاته الصغيرة ولا يرغب في تشجيعه ودعمه بشكل دائم؟!

رغم عظم دورها.. لا يكف دور الأم وحدها، لابد أن يتحمل الأب مسئوليته ويُشاطر الأم في الاهتمام بثمارهم حتى تُصبح ناضجة قادرة على الصمود.

قبل الغزو التكنولوجي الذي نعاصر.. كانت وظيفة الأب أن ينظر داخل صغاره ويستخرج مواهبهم ويدعمهم.. حتى تلك النبتات التي لا تُرى للعالم الخارجي.. من المفترض أن تكون مرئية داخل تلك الأسرة الصغيرة.. الأب والأم مسئولون عن وضع الحجر الأول لبناء شخصيات أطفالهم.

جميعنا يفضل الراحة..!

تمسك بالهاتف وتتصفح فيسبوك وتويتر وتيك توك أم تقرأ كتاب؟

تلعب مع أبنائك وتلاطفهم أم تمسك بالهاتف وتشاهد مقاطع فيديو مُضحكة لأطفال يلعبون....!؟

تُعلم أطفالك شيئًا وتغرز فيهم معنى وفكرة أم تتصفح فيسبوك.. ؟

الحياة اختيارات.. اختيارك يحدد حياتك ويسير بها في اتجاه ما دون أن تشعر..!

من الممكن أن تغفر لنفسك تفضيلها الراحة وتصفح مواقع التواصل دون هدف لنصف ساعة مثلا .. دون القيام بالواجبات والمسئوليات ولا فعل أي شيء يُذكر.. لكن هل يُعقل أن تسمح لنفسك بفعل ذلك لساعات..؟!

تلك الساعات التي تمر من عمرك دون أن تدري.. كأنك آله تُحركها وتتحكم فيها "البوستات والتويتات والريلز"....!

خاصةً عندما تكون أب وتصبحين أمًا.. يصبح ذلك الفعل اللامسئول.. هو سبب العقد النفسية لدى الأبناء.. يخرج جيل يبحث عن الاهتمام في كل شيء ولا يجده.. في صغره، يتمنى أن يصبح هاتفًا محمولًا، ليظل محمولاً في الليل والنهار بين يدي أمه وأبـيه..

وعندما يكبر.. أتوقع أن يُصبح جيلاً فاقدًا لمهارات التواصل الواقعي.. متقن لمهارات التواصل الافتراضي فقط.. جيل فاقد الشغف بالأشياء المهمة في الحياة، لا يهتم بالمهم.. ولا يُقدر أهمية التواصل الاجتماعي مع الأهل والعائلة على أرض الواقع.. لا يهتم إلا بالأشياء التافهة.. خارج نطاق العقل!..

...

إستثمر في لحظات بسيطة..

لم يكن أبــي صاحب أملاك ولا يملك سوى بيت صغير وأسرة كبيرة.. فقد كان من النوع الذي لا يملك مهارة الإدخار.. لم يحاول أن يمنعنا من أي شيء نريده ليـدخر شيئًا للغد.. بالفعل كان يـفضل أن يشترى لنا ما نريد ويصرف على نزهتنا ورفاهيتنا، على أن يدخر أمــوال ويستثمرها.. كان يستثمر فينا، وكأنه يشتري فرحتنا وتجربتنا لشيء جديد ورؤيتنا أماكن جديدة واختبار متعة التنزه، وهو متأكداً أن هذه اللحظات هي ما تصنــع شخصياتنا.

صفقــة مميزة وفريدة، تلك التي يعقدها الأب مع الزمان، يجتهد ويجتهد ليــجني المال، ويصرفه على أسرته وأبناؤه.. وهو متأكدًا أنه في كل لحظة ســعادة يقدمها لأبناؤه، عند شراء شيء جديد لهم، حلوى أو لعبة أو غير ذلك، تتولد وتكبر العديد من السمات والمميزات في شخصيــاتهم. وأيضًا يا لها من تجارب رائعة تصنع أبطالاً..

تلك التجارب التي يعيشها الأبناء عند السفـر للمصيف أو للتنزه أو للتعرف على شيء جديد.. تلك التجارب تحمل الكثير من المغامرات المثيرة بالنسبة لأولئك الصغار.. وتحفـر أيضًا سمـات متعددة في تلك الشخصيات التي تتكون وتنمو مع كل تجربة جديدة...

فيمر الزمان، ويكبر الصغار ليتذكروا تلك اللحظات التي كانت لهم الأفضليـة فيها، ويتأكدوا أن الأب هو الوحيد الذي يضعـهم في أولوياته... فمن يضعهم في المقدمة اليوم؟!

...

رحلات المصيف في بداية الـ 2000..!

لحظات سعيدة أحاول اقتناصها من ذاكرتي الآن لمراجعتها لحظة بلحظة.. لاستخلصها وأضعها في مكانها في الجانب الأخر من العالم.. أحاول أن استحضـرها لمخيلتي حتى أشعر بلذتها.

رحلة المصيف إلى مرسى مطروح أو اسكندرية أو العريش.. كلها رحلات ممتعة لنا.. لكن تحمل الكثير من الهـم والتضحيـة في ثناياها..

يُطالب الأبناء دائمًا بحقهـم في التنزه والرفاهية.. لكن من أين يأتي الأب بالتكاليف الكافية لذلك؟!.. لا يهـتم الأطفال لهذا الأمر.. وهنـاك زوجات أيضًا لا تهتم!!

رحلة المصيف تحتاج إلى جمعية يستمر سدادها لشهور.. أو قدر من المال من "تحويشة" استمرت لشهور أيضًا.. مقابل أيـام ولحظات من السعادة تقضيها الأسرة على الشاطيء.

الكثير من المتخصصين وجهوا الأباء لأهمية إشراك أطفالهم في القضايا المالية.. لابد أن تشرح لهم بعض ظروفك المـادية، حتى يكون لديهم قدر من الاحترام والتقدير لمـا تفعله.. وحتى تكون قادرًا على إقنـاعهم بعدم توفير شيئًا ما من احتياجاتهم في بعض الأحيان.

كان أبـي يفعل ذلك.. كان يقصد إشراكنـا في الأمر.. كان يُعلمنا أن ليس كل شيء نرغب به حتمًا سيكون متوفـرًا.. لابد من فلترة الحاجات.. وترتيب الأولـويات.. وكانت رحلة المصيف من أولوياته، كان يحارب من أجل توفيـر قدر من المال لرحـلة المصيف السنوية.

فهذا أسبوع من المتعة.. يسبقة شهر من التحضيرات المليئة بالحمـاس والفرحـة في أعين أولئك الصغـار.. رحلة تضاهي أجمل رحلة على شواطيء ميامي!..

لم يكن البحر يُمثل عند أبــي سوى جو لطيف ونفحات جميلة يستمتع بها على الشاطيء..

فهل يمكن أن تضع صورته وهو ينظر للبحر في قائمة أعمق 10 صور في العالم؟!... تحكي صورته تعب الطريق وطول الانتظار وثقل الحمل...

خلال كل رحلة .. كان أبــي الراعي والمرشد السياحي الذي لا يمل من تعريفنا بكل مكان نزوه وماضيــه وحاضــرة..

...

مشهد لا يُنسى..!!

داخل العربة أو القطار.. الأب يـقظ ولا يكاد يبتلع ريقه حتى يبدأ قصة جديدة عن مكان نمر به "هذا هو ميدان كذا.. وهذا كوبري كذا.. أما هذا فهو ممر كذا .." الأبناء يغطون في نـــوم عميق، ولا يبالي أحدهم بالرد على الأب المقتنع تمامًا بأن كلامه سيظل محفورًا في عقل أولئك الصغار .. العقل الواعي أو اللا واعي .. لا يهم!..

لمــا لا يتوقف الزمان عند تلك اللحظات الجميلة الخاطفة... أسرة من 6 أفراد تتناول السمك على إحدى شواطيء مرسى مطروح.. ينقصنا الملــح.. فيذهب الأب ليأتي به سريعًا حتى لا يفسد المذاق ولذة تجمع الأسرة بهذا الشكل الذي يعطي دفعة للأمام دائمًا..

هل تجد أحد غيرهمـا يفعل كل شيء بلا مقابل.. يعطي فيعـطي.. ثم يعطـي.. مقابل فقط لحظات من السعـادة لأولئك الصغار الحالمين..

تمر السنين.. ويأتي الصغار على شواطيء البحر مرة أخرى.. لكن دون الأب.. الذي كان هو المخطط والمدبـر والمنسـق والراعي دائمًـا.. لم أتخيل يومًا أني سأذهب إلى مرسى مطروح دون أبـي! لكني فعلتها.. بل فعلناها جميعًا معًا..

...

لست حارساً..؟!

كان أبــي ينقل لنا قدر كبير من الخوف تجاه بعض الأشياء حولنا. لكنه لم يكن يمنعنا من خوض التجربة !

لست حارسًا لأطفالك.. اتركهم يجربون.. لا تنقل لهم الخوف الفطري لديك، المدفوع بعاطفة الأب. اتركهم يخوضوا المزيد من التجارب. ففي كل تجربة مهــارة جديــدة وقدرة فريــدة يمكن أن يمتلكوها وتكــبر داخلهم عامًا بعد عام.

وجههم فقط من بعيــد.. وأخبرهم أنك دائمًا ستكون بجانبهم.. لكن أجعلهم يتأكدون في الوقت ذاته، أنك لــن تتحمل نتيجة أخطــائهم.. كل فرد يتحمل نتيجة أفعاله، نعم.. لابد أن يتحمل طفلك نتيجة أخطــائه، حتى لا يخرج إلى المجتمع المتواكلون وغير القــادرين على تحمل المسئولية.

منذ سن الإدراك.. لابد أن تضع في اعتبارك أن طفلك سيكون أبًا يومًا مـا وأن طفلتك ستصبح أمًا.. فكيف تربـي فيهم إحساس الخوف من التجربة.. وكيف تتحمل نتيجة أخطائـهم اليوم، فيبحثوا غدًا عمن يفعـل ذلك، فيتوهوا في الدنيا..؟!

شيئًا أخر اعتبره جريمة بشعة في حق الأبناء.. كثيرًا ما اسمع عن أب يجبر ولده على دراسة تخصص معين.. لماذا؟ هل خُلقت تلك النفس لتحقيق رغباتك أنت؟ لماذا تُجبره أن يفكر بعقلك؟

كان أبي خير مُشجع على حرية الاختيار.. لم يُجبرنا على اختيار قسم معين ولم يُحملنا أي عبء اجتماعي لندرس في كلية محددة دون غيرها.

...

حياة أكثر تعقيدًا مما ظن أبي.. !

تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي فتتعرف على حيوات الأخرين.. هذا لديه كذا وكذا.. وهذا يفعل كذا.. وهذا يستمتع بالخروج يوميًا.. وكذا وهكذا..

كثرت الطلبات ومتطلبات العيش.. فأصبحت الحياة أكثر تعقيدًا.. لم تصبح الحياة البسيطة مناسبة ومُرضية لأشبال هذا الجيل..

كيف يقضي موظف حاجات عائلته وسط كل هذه المدخلات التي سرقت الرضا من حياتنا..؟!

لا... أنت غير مُطالب بقضاء حاجاتهم كافاتــها.. أنت مُطالب فقط بقضاء الحاجات الأساسية.. ومُطالب أكثر بزرع بذور الثقة بالنفس والرضا في نفوسهم منذ الصغر، والأهم من كل هذا، أن تعلم أطفــالك معنى "الإكتفاء"..

نعم.. من الممكن أن تجعلهم يقدرون ما لديهم ويحافظون عليه ويكتفون بما تقدمه لهم.

منذ اللحظات الأولى للإدراك... لابد أن تكون أنت كأب وتكونين أنتي كأم على دراية بسبل زرع الثقة بالنفس في نفوس أطفالكم، ليتمكنوا من مواجهة الحياة بنفوس ثابتــة كالجبال في مواجهة الريح. ذلك الثبات الذي يمنعهم من الضعف والإنسياق وراء كل تافه ورخيص لمجرد الهــوى..

لابد أن يعرف ذلك الطفل الصغير أن الحياة ليست ملكه هو، وأنه لابد أن يختار منها فقط ما يحتــاج.

من العدل أيضًا أن لا تُــحمل أبناؤك ضريبة هذا العالم الافتراضي كاملةً.. فلك نصيبًا منها.. أي أن الطفل يُولد ولا يعرف شيئًا عن الهاتف المحمول ولا التلفاز ولا الإنترنت..تبدأ الأم بإعطائة الهاتف لينشغل به ويصمت عن البكاء للحظات من الزمن..

لكن يمر الوقت ويصبح هو المهديء الوحيد للطفل...

ومن الهاتف إلى شاشات التلفاز.. تجعله الأم أو الأب يشاهد حلقات كرتونية بعينها.. فيقع في غرامها في هذا السن الصغير.. وتصبح شاشات التلفاز أيضًا من أهم أولويات ذلك الطفل الرضيع.. بامبرز ببرونة.. هاتف محمول.. تلفاز..!!

...

أول جهاز كمبيوتر...!!

كان لأول جهاز كمبيوتر يدخل بيتنا فرحة من نوع خاص جدًا.. كان ذلك في عام 2005 تقريبًا.. وبعدها بقليل إهتم أبي بأن يجلب لنا "وصلة إنترنت".. فقد كان بيتنا من أوائل البيوت التي تمتلك إنترنت أرضي في ذلك الحين. كان شيء مدهش بالنسبة للجميع..!

رغم أعمارنا الصغيرة حينها.. لن أنسى تشجيع أبي لنا لاستخدام الإنترنت، للبحث عن المعلومات في مجالات مختلفة.. حتى أني كنت أجد متعة كبيرة في البحث وقمت بإعداد بحث عن "عالم البحار" في سن صغير جدًا.

...

في بداية الألفية الثانية..

في بداية الألفية الثانية.. كانت طفولة جيل هــاديء.. لا ينشغل بمواقع التواصل الاجتماعي.. كانت طفولته سوية، مليئة براحــة البال والدفـء والمهارات والفنون.. لم يكن أحد يقضي ساعــات في تصفح التيك توك.. ولا في غرف الدردشة .. لم يكن أحد مدمن مسلسلات ولا أفلام.. كان هذا "كلام كبار".. لم نجرأ على متابعة المسلسلات في هذا السن الصغير.. من هذه الطفولة الهادئة إلى صــدمة كبيرة جدًا.. واجهها نفس الجيل في شبابه.. أصبح أسير ما يُسمى بالـ FOMO أو الـ Fear of missing out

...

حمل أثقل على الجميع..!!

أصبح ذلك الجيل نفسه يستيقظ من النوم إلى الهـاتف ليتصفح مواقع التواصل الاجتماعي.. مـا الجديد.. ما الذي حدث خلال ساعـات نومي..؟!

"بقينا بنقوم من النوم.. مضروبين على دماغنا .. ونفضل طول اليوم مضروبين على دماغنا، لحد ما نرجع ننام تاني من كتر التعب.. وساعة ما نحط دماغنا على المخدة، النوم يروح والأرق يشتغل.. من كتر التفكير !! .."

حياة صعبة جدًا.. تعتمد على المنافسة والجري المستمر..

"لازم ألحق كل فرصة قبل ما تضيع ..

لازم أكون مُطلع على كل الأحداث ..

لازم أبقى على علم بكل حاجة جديدة ..

لازم أقرا كتب أكتر، وأذاكر أكتر ..

لازم أعرف أي ترينـد أول ما يبدأ ..

لازم أشتغل أكتر.. عشان أنجح أكتر ..

لازم أعمل فلوس أكتر.. عشان مابقاش فقير ..

لازم أكبر مشاريعي , قبل ما غيري يكبر مشاريعه .. ويكبر قبلي "

ولن تكفي صفحات الكتب لذكر ما حَملناه لأنفسنا من أعباء قاسيــة..!

...

مهتم فقط..!!

كان ذلك الأب، من جيل الستينيات، هو أكثر شخص مهتم بـأحدث صيحات التكنولوجيا ولكنه يكتفي بمعرفتها فقد.. لا يفكر أن يُشغل نفسه بها ولا أن يحصل عليها.. فلم أشعر للحظة أنه يرغب بشراء هاتف محمول أنـدرويد ولا شاشـات ذكية ولا يرغب بتصفح مواقع التواصل الاجتماعي لسـاعات.. بل كان فقط يحب المتابعة ومعرفة ما الجديد في عالم اليوم عبر النشرة الإخبارية أو برنـامج التوك شو المسائي أو موقع إخباري عبر الإنترنت..

لكن بات على الأب ثقل ومسئولية كبيرة أن يأتي بإثبات لكل معلومة تخرج من فمه لأولئك الشباب المشغول بعـالم التكنولوجيا..

كيف السبيل إلى تلك العقول التي لا تبــالي بأي شيء يخرج من فم الأب بإعتباره "دقة قديمة"..!

في نفس الوقت.. لم يعتد ذلك الفـم الصمت أبدًا.. لم يصمت في أي موقف.. إن كانت القضية قديمة أم حديثة.. له رأي فيها في كل الأحوال.. ولا يكتفي بذلك.. دائمًا ما يرى أن الأبناء بحاجة إلى عقل فوق عقولهـم الصغيرة.. ومهما كبروا.. فهو يجد أنهم في حاجــة إلى شرح وتوضيح منه لكل موقف وكل شيء يمــروا به..!

...

إنها الحياة.. !

ثم تمر الأيام.. ويصبح أولئك الصـــغار مستقلين .. لكل منهم فكر خاص به. لم تصبح أفكار الأب مدهشة، ولم تعد نكاتــه مضحكة.. هو ذاته لم يتغيــر.. ولكننا تغيــرنا وتبدلت شخصياتنا بشخصيات أخرى، يُسيطر عليها الجمود والقلق.. تغيرت أماكننا وتبدلت عقولنا وأصبحنا نسخ مختلفة عن أولئك الصغار الذين ظن أبــي أنه ممسك بلجامهم حتى النهاية.

يحارب الأب والأم ويركبان أمواج الدنيــا، حتى يمر الوقت، ويكبر الصغار وسط هذه الأزمات والمصاعب.. الماديــة والاجتماعيــة والنفسيــة.. كلاهما يعطي فوق عمره عمــرًا من الجـهـد والتعـب والنصــائح والقلق والألـم والفرحـة والحـزن.. حتى تمر الأيام وتصبح النبتة جاهزة للقيـام بمهمتها كشجرة كبيرة تحارب من أجل البقاء.

اليوم أصبح الأبناء ينادون بالاستقلال .. يجادلون في كل صغيرة وكبيرة.. لا يتوقفون عن قول "أنا أريد.. أنا أرغب .. أنا حر.."... ولما لا .. فقد تغير الزمان.. وبدى كل شيء بوجه مختلف.

أصبح الجيل الصاعد لا يـرى سوى من خلال تلك النافذة السحابية التي تُسمـى "مواقع التواصل الاجتماعي".. تلك النافذة المزيفة.. نعم هي كذلك، رغم أن الإنترنت بحر واسع ومواقع التواصل الاجتماعي تحول العالم لقرية صغيرة.. إلا أن تلك القرية الصغيرة التي تراها، مزيفة، تظهر لك عـالم افتراضي خالـي من الحقائق الواقعية.

...

يوم فرح..!

مازلت أتذكر تلك النظرات في ذلك اليوم المختلـف.. إنه يوم فرحـي.. لم تكن مشاعر أبـي واضحة في ذلك اليوم.. منذ بداية النهار وهو يتجنب الحديث معي.. كنت أود الحديث معه وأن يطول الحديث بيننا كـالعادة.. لكن لا أعرف السـر الذي جعله لا يتحدث معي قبل الذهاب للكوافير.. ولا قبل الذهـاب لمنـزلي الجديد بعد الفرح..

كنت أنتظر منه الكثير.. لكن نظرات عينيه كانت تكفـي ..

أو أنـه كان يظن أنها كافية.. للتهنئة أو للـوداع أو لأي شيء.

حتى اليوم لم اتمكن من فهم شعـــوره في ذلك اليوم..

عندما بدأ االفرح ودخلنا القاعة.. خرج هو ليتنفس بعض الهواء النقي على النيل خـارج القاعة ..!

أعرف أنه لم يكن يحب التواجد وسط الضوضـاء ولا سماع الأغاني والموسيقى بصوت صاخب.. لكن كنت انتظر أن يبقى ولو قليلًا..

كنت اتفقد القاعة طوال وقت الفرح، الجميع موجـود.. إلا أبــي فقد ظل في الخارج ولم يأت إلا وقت كتب الكتاب!

هذه اللقطات الخاطفة التي التقطتها كاميرات الفيديــو له وقت كتب الكتاب في القاعة.. هي اللحظات التي تجعلني أعيد رؤية فيديو الفرح مرات ومرات.. لأرى أبــي واستشعر وجوده كأنه هنا..

...

ماذا بعد..؟؟

في كل مرة كان يزورني فيها، يُشعرني بأن لدي أمانة كبيرة وحمل ثقيل لابد من حملة لنهاية المطاف، وأنه قد جاء دوري لأصبح أماً حقيقيـة. نـعم أماً حقيقية.. أمًا لديها متسع من الوقت لأبنائها.. لديها طاقة لسماعهم والإنصات لمخاوفهم.

كنت أرى في عينيه فيض من المشاعر، ممزوج بالذكريات.. كم كنت أحب تلك النظرات من العطف والحب..! وكم حاولت أن أضع نفسي موضع أبــي وأمي حين يــرون أحفادهم ويلعبون معهم.

هل يشعرون الآن بطول الرحلة، أم بحلاوة الوصول، أم أن الرحلة قد بدأت من جديد..؟!

...

أنت.. صانع ذكرياتي..؟!

لكن لابد أن يعرف كل أب وتتأكد كل أم أنها صانعة ذكريات أطفالها.. نعم.. ليس ذلك فقط..

انظر إلى نفسك الآن.. ما تفعله وما تخطط له وكيف تفكر.. كل شيء إرادي أو لا إرادي تفعله.. ستجد أنك تُعيد تطبيق ما تعلمته ما رأيته حولك.. تنظر إلى الدنيا بعين أباك.. تعامل الناس بطريقة أمك.. حتمًا ستجد أن هناك فعلا كنت تنتقد والديك لفعله.. وأنت الآن تفعله وتكرره دون قصد..!

حين ينسدل الستار على تلك الأسرة.. يتفرق الأبناء فيكون لكل فرد بيت.. ولكن، تأكد أن هذا المجتمع الصغير داخل الأسرة التي وُلدت فيها سيتكرر.. تكبر وتتزوج وتنتمي إلى بيت وأسرة أخرى.. ويبقى أثر ذلك المجتمع الذي عشت داخله في الطفولة لا يُفارق مخيلتك.. كيف كنت تُعامل وتتعامل مع من حولك؟ ماذا

أحببت وماذا كرهت؟.. ماذا شعرت وكيف كنت؟

العقل اللاواعي دائمًا يكون له النصيب الأكبر في حياتك الجديدة.. أو التي تظن أنها جديدة.. حتى تنغمس فيها وتعيش،، وتضع رأسك على الوسادة كل يوم وتراجع أحداث اليوم.. فتجد أن معظمها مُعاد.. معظمها مُغلف بسمات تلك الشخصيات التي تربيت في كنفها وكبرت.

تلك المشاهد التي تشكل طفولتنا.. حين نكبر تصبح مجموعة من القطع الصغيرة المتناثـرة.. تدور وتدور في داخلنـا.. وتجعلنا نجلس أحيانًا في عزلة عن ذلك العالـم الصـاخب، حتى نسمح لهذه القطع أن تتلاقى وتكتمل لتصبح مشهد متكامـل يحمل بعضًا من نفحات الماضي والطفولة البرئية، لنتمكن من أخذ نفس عميق مليء بالذكريات، يكفينا لمعايشـة الـواقع.

...

ما بعد الهاتف الحديث.. !

لم يحصل أبــي على هاتف أندرويد حديث إلا على كبـر.. فلم يكن ذلك هو عالمه المعتاد.. لم يعتد على حمل الهاتف وتصفح مواقع التواصل الاجتماعي ومتابعة رسائل الواتساب بشكل يومي. رغم أن كل هذه المدخلات كانت متاحة أمامــه منذ فترة لا تقل عن 10 أعــوام، لكنه فضل أن يبتعد عنها ويعيش بلا مُدخلات مزعجة.. أو أنه كان يكتفي بمشكلات الواقع.. ولم يكن لديــه وقت للواقع الافتراضي.

لكن اليــوم.. وقد زوج بناته وترك عمــله وخرج على المعاش مبكرًا، وهو في عمر الـ 55 عامًا، اتجه إلى التفكير بطريقة أخـرى.. فكر في الرجوع لحياته فيما بعد التخرج من كلية الحقوق، فعاد ليُجدد كارنيه النقابة وينضم إلى ركب المحاميين من جديد، بعد حوالي 25 عامًا في العمل كموظف حكومي..!

لم يكن أحد يعلم لماذا قرر ذلك في هذا التوقيت بالتحديد.. لكنه كان يفكر في ذلك منذ فترة وجيزة، بسبب الإرهاق والملل من الروتين الحكومي، فقد كنت أشعر أنه غير مرتــاح للاستمرار في العمل الحكومي، بل كان يود تقديم شيء مفيد للناس وخدمتهم في مجاله.

وقد فعل ذلك بالفعل عندما خرج على المعاش، خرج بطاقة رهيبة لمساعدة الناس، كان يأخذ قضايا عديدة بهدف الصلح فقط.. فكم من قضية انتهت بالصلح بسببه!.. وكم من قضية حصل فيها على "ملاليم"!.. كانت القضايا تُكلفه أموال ومجهود كبير.. ولكنه كان يحصل على أموال رمزية جدًا مقابل كل قضية مقارنةً بالمحامين الأخرين.. ذلك لأنه لم يكن يُقدر مساعدة الناس بالمال. كان يكتفي بالقليل من المال، أملًا في أن تكون مساعدة الناس أثقل وأكبر عند الله من أي قدر من المال يحصل عليه.

هنا.. استدعت وظيفته كمحامي حر أن يكون لديه هاتف حديث، لمتابعة الواتساب والتواصل مع العملاء.

كان استخدام أبـــي للواتساب والفيسبوك مقتصر على العمل والتواصل الفعال مع وكلائه حتى يتمكن من فهمهم أكثر والخوض في قضاياهم.

كان أيضًا يستغل مهنته ويكتب مقالات للجمهور، ليستفيد منها الناس، فقد كان يهدف إلى توعيه الناس بما لهم ومـــا عليهم. قام بالفعل بعمل موقع إلكتروني ونشر مقالاته، وأصبح الموقع يحصل على آلاف الزيارات يوميًا للاستفادة من خبراته والتواصل معه.

...

وجهة نظر..!!

تعلمت من تجربة أبــي العملية، أن وضع نفسك في المكان غير المناسب والرضا دون المحاولة والمقاومة لتصبح في المكان الأمثل لك ولقدراتك ومهاراتك.. شيء يُكلفك سنوات ضائعة من عمرك.. لا تشعر بها إلا عندما يمر العمر...

يمكنني تشبيه الأمر بمن يقوم بركن عربة مرسيدس في أحد الشوارع الضيقة.. فتتعرض السيارة للخدش والكسر أحيانًا.. وبعد أيـام قليلة من الممكن أن تكون أسوأ عربة مرسيدس في التاريخ..!

كان أبــي محامي مخلص ومتميز.. لكن لم يجد بيئة العمل المناسبة التي تجعله يُخرج ما لديه... ولم يفكر في تغيير بيئة عمله إلا بعد سنوات طويلة.. وعنــدها أخرج طاقته وأصبح محاميًا يقوم بمهمته الحقيقية في مساعدة الناس ونصر المظلومين.

ابحث داخلك..!

هل تبحث عن نفسك في دولابك أم دولاب غيرك..؟

كان أبــي راضي بمستواه الاجتماعي.. لم أشعر أبدًا أنه ينظر للأخرين ممن هم أعلى منا في المستوى الاجتماعي.. دائمًا كان يدبر أموره براتبه الصــغير وهو يحلم فقط بالمساواه وتحقيق العدل.

كان يحلم بمساواة راتبه مع من يناظره في الوزارات الأخرى. ولا يبالي بالأخرين.

حين انتقلنا للعيش في إحدى المناطق الشعبية الشهيرة، كان همـه الوحيد هو أن لا يختلط أولئك الصغار ببعض الأفراد سيئي السمــعة في الشارع والمدرسة.. كان يُتابع عن كثب تحركات أبناؤه وتصرفـاتهم.. هل اختلطوا بأصدقاء السوء حقًا أم مازالوا يحافظون على التعــاليم التي حاول غرسها فيهم.

فقط.. ابحث عن ذاتك بداخلك أنت.. لا تنتظر اهتمام من الأخرين.. افعل ما يجب أن تفعله وكفى. حتى إذا كنت في بيئة سيئة، كن أنت كما أنت.. لا تُجبر ذاتك على إتباع أي أحد..!.

لم يدخل سباقًا مع أحد قط... أيقن أن الدنيا لا تستحق السباق ولا الجري دائماً..

تعلمت منه الإسترخاء والرضا بما قسمه الله..!!

...

ممكن.. !؟

ممكن الوجع يكون أخف إذا توقعت أن أي أحد تحبه، يمكن أن يموت في لحظة..

أبوك .. أمك .. أخوك.. أختك.. أبنك..

أقرب الناس إليك يذهبون دون مقدمات وبلا عودة..

هل من الطبيعي أن نربي أبنائنا على كيفية التعامل مع تلك اللحظات المفاجئة وتوقع أن تأتي في أي وقت؟!

لم تكن تلك الشخصية من جيـل الستينيات، تنظر إلى الدنيا بشكل إيجابـي.. بل كان توقع الأسوء هو السمة المُسيطرة على عقلـه دائمًا.. إذا تأخر أحد الأبناء ولو لساعة، فبالتأكيد قد حدث له مكـروه.. وإذا اتصل بأحد ولم يـرد.. فقد يكون قد مات!.. هكذا كان يفكر دائماً..!!

لكن اكتشفت، على كبر، أن توقع حدوث كل السيناريوهات السيئة والطيبة.. هو أمر صحيح ومُجدي للتقليل من الأثر القاسي والحاد للصدمات..

فهمت مؤخرًا أهمية تربية الأبناء على أن الموت أمر واقع من الممكن أن يحدث في أي وقت.. لابد أن يقول الأب لأبنائه.. أنا سأموت يومًا ما وأريد منكم أن تفعلوا كذا وكذا بعدي. رأيت يومًا ما صورة لأحد الأجانب بجوار أمه الميته، صورة التقطها هو كتذكار من الحادث!

هل يمكن أن يكون قلب المرء ميت إلى هذه الدرجة؟

لكن بعد أن تمهلت لحظة.. وجدت أن الفارق في التربية.. في الغرب لا يعرفون معنى "بعد الشر عليك" التي نقولها لبعضنا عندما يذكر أحدنا الموت.. هناك يخبر الأب أبناؤه أن الموت شيء عادي ولابد من مواجهته كمرحلة من المراحل التي يمر بها الإنسان.. يُربى الطفل ليكون قويًا في تلك اللحظة التي يفارق فيه أباه أو أمه الحياة..

أتذكر وأنا صغيرة عندما سمعت خبر وفاة جدي.. سقطت دمعة سريعة من عين أبـي وكأنها تهرب بسرعة قبل أن نـراها!.. لم يكن يريد أن ينشر بيننا الخـوف من المـوت. كان الحزن في قلبه يزن جبـال ولكنه تريس في إظهار مشاعره لنا.. هرع إليه ليراه للمرة الأخيرة.. ولكن فات الآوان ودُفن جدي قبل وصول أبـي للبـلد.

واستمرت الحياة طبيعية جدًا دون ذلك الوجـه الطيب الذي ترك الزمن علامات على كل خلية من خلاياه.. تجاعيد ومنحنيات.. وعين مليئة بالذكريات والحنين.

ما أشبه ذلك الموقف بأي شيء نجري إليه ولا نبلغه!.. نجري على أمل اللحاق والوصول.. لكن النصيب يحكم في النهاية دون مقدمات مُرضية.

...

أخر صفحة في الكتاب.. وصلت إليها للتو..؟!

حقيقةً لا يعرف أيًا منا متى يصل إلى أخر صفحة في كتابه ولا في كتب من حوله..

فجأءة تجد الشعر قد شاب.. والجسد يُعاني من آلام متفرقة.. وشريط حياتك يمر وكأنه لحظة عابــرة..!

عندما كنت أنظر لأبــي وقد سيطر المشيب على رأسه.. كان يمتلكني الشعور بالخوف من أن تكون هذه هي الصفحة الأخيرة في كتابه.. كنت أحاول نسيان هذا الشعور واسترق بعض اللحظات معه واحفظها في ذاكرتي للزمان.. وذهب أبــي وبقيت ذكريـات ومقتطفـات تدمع عيناي عندما تمر بخاطري.

فقط استغل كل لحظة من تلك اللحظات المقتطفة من حياتك.. تذوقها جيدًا.. انظر في عيني من حولك.. احفظ ملامحهم.. اسألهم عن مشاعرهم..

حياتنا هي تلك المجموعة من القطع.. منا من يتمنى أن تجـد كل قطعة ما يُكملهـا حتى يجد ذاته ويستطيـع مواصلة حياته.. ومنا من يهرب من مكـان لأخر.. حتى تتباعد تلك القطع عن بعضهـا ويُصبح من المستحيل تجميعهـا مرة أخرى..

...

الفهرس

مقدمة 3
عندما تتبدل الأدوار 7
أنا موظف.. 9
بعيدًا عن عالم الجينز وأنواعه... 11
أيديولوجيا عجيبة!... 12
إمضاء غائب..!... 15
طبيب بالخبرة..!... 17
عيش وطعمية..!... 20
جلسة سمر = ألف معنى.. 23
مراقبة الأصدقاء..!... 25
لا تنس خريطة العالم..! 27
لعبة الشطرنج... 29

لكل أب.. 31
جميعنا يفضل الراحة..! 33
استثمر في لحظات بسيطة..... 35
رحلات المصيف في بداية الـ 2000..! 37
مشهد لا يُنسى.. 40
لست حارسًا..... 42
حياة أكثر تعقيدًا مما ظن أبي.. ! 44
أول جهاز كمبيوتر..... 47
في بداية الألفية الثانية..... 48
حمل أثقل على الجميع.. 49
مهتم فقط..... 51
إنها الحياة.. ! 53
يوم فرح..!..... 55
ماذا بعد..!..... 57
أنت.. صانع ذكرياتي..! 58
ما بعد الهاتف الحديث.. ! 60

وجهة نظر.. 63
ابحث داخلك..! 64
ممكن.. ! 66
خاتمة 69
الفهرس 71